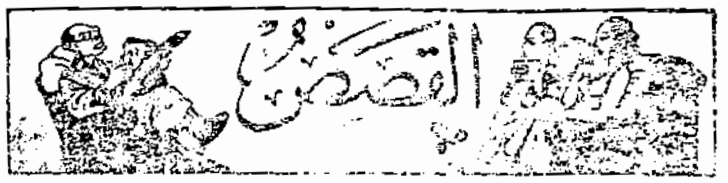

من آداب الصين الحديثة

قصة الراعي المحزنة

للكاتب الصيني قوسوجو

— ١ —

استقدمتني إلى كوريا من وراء البحار على بعد آلاف الأميال ، واستقبلتني تلك الأرواح العلية لجبال كِنج كُنج الشامخة الكثيرة القمم ، فلما وصلت إلى كوريا نزلت في قرية صغيرة على سفح كنج كنج مشرفة على البحر اليابانى اسمها « حى الأرواح والأولياء » وكان في القرية بضعة عشر كوخاً مواجهة للبحر متكئة على الجبل ، ليست قديمة متهدمة ولا حديثة مزدانة ،

هو القلب هو الحب وما الدنيا لدى الحب
سوى المكشوفة الأسر ار والمهتوكة الحجب

هذا وليس في وسعي الآن أن أحيط بكل ما في ديوان الشاعر من قصائد متنوعة الموضوعات . ولكنك أني أجلت طرفك في ليالى الملاح التائه وجدت الشعر بكل ما تضمنته هذه الكلمة من معنى . تقرأ القصيدة فترى القوة تصدها من أى ناحية جئتها ، وترى الرقة تبلغ نهايتها حتى تشف عن تلك النفس الهائمة في عوالم الجمال والشعر والخيال . وترى الخواطر والمعانى الدقيقة وقد صبغها الشاعر بصبغة من فنه الرفيع وعبر عنها بأسلوبه الشعرى الخاص ، حتى لتكاد اللفظة الواحدة بحلاوة جرسها وسحر وقعها في النفس تقول لك : أنا لست كلمة من الكلمات ولكنني نغمة من الأنغام . حتى إذا روّيت نفسك من هذه الشاعرية المتدفقة بأروع الشعر وأرقه رفعت عينيك الفياضتين بالنشوة وقد آمنت معي بأن الطبيعة التي قالت للشاعر الفرنسي لامرتين « سر في طريقك ، ما أنبه شأنك ، إنه رآك » تعود اليوم فتقول مثل هذا للشاعر العربي المصري على محمود طه .

« رنانير »

وكان أمام كل بيت بستان جميل تتسلق على جدرانه الفروع ذات الأزهار الناضرة الزكية ، وتبدو من بين المنازل والحدائق أشجار عالية ، وكانت تحوط القرية غابات كثيفة من الصنوبر ؛ وثمت أراض قليلة على مقربة من القرية كانت مفروشة ببساط من شجيرات القمح والشعير ؛ وكان يجرى في خلال الغابة الواقعة في الجنوب الغربى من القرية نهر يسمى نهر الثناء ، يتجمع من السيول المنحدرة من قمم كنج كنج وله صوت حزين غاضب وهو يسير صوب البحر اليابانى .

ارتاب أهل القرية في أمرى حينما بلغتها وظنوا أنى صينى مريب فلم يرضوا أن أنزل عندهم . غير أن سيدة كريمة في أقصى القرية أشفقت علىّ بعد ما سمعت كلامى وعرفت قصدى وأنى بعيد عن أهلى وأقاربى فأذنت لى بالنزول عندها ، وآنست وحشتى بكلمات وجدت لها برد الراحة بعد التعب الذى لقيت في سفرى الطويل الشاق . وكانت السيدة بوذية تعيش في وحدة تصوم وتصلى وقد جاوزت الخمسين من عمرها ، وكان على الباب شعر منثور مكتوب على ورق أبيض ؛ كما هى عادة الكوريين ؛ فلما دخلت الباب وجدت فضاء مسوراً مزيناً ببعض الأشجار والأزهار ومنزلاً مكوناً من ردهة واسعة على جانبيها حجرتان ، وللردهة باب جانبى ينفذ إلى المزارع التي خلف المنزل والتي تظهر لمن يراها كأنها متصلة بجبل كنج كنج ، وكانت في وسط الردهة منضدة عالية عليها تمثال بوذا من الحجر الثمين . دعتنى السيدة الكريمة إلى النزول في الغرفة اليمنى ، ولم يكن بها إلا سرير ونافذة مملوءة بالغبار كأن لم يسكنها أحد من زمن بعيد

مر بى أسبوع مرور الطيف وأنا في بيت هذه السيدة الكريمة ، وكنت أخرج كل يوم للنزهة في الجبال وزيارة الآثار الشهيرة من الصباح إلى المساء لا تعوقنى الشمس ولا المطر ووطئت جميع القمم إلا قمة واحدة ، وقد انطبعت في ذهنى جميع المناظر الجبلية الجميلة الجذابة لا تفارقنى لحظة فإذا أغمضت عينى برزت لخيالى كما تبرز الصور على الشاشة الفضية . على أنى لم أكن أملك من قوة الكتابة أو التصوير ما يسمح لى أن أصف هذه المناظر الخلابة أو أصفها واحدة واحدة فأهدى صورها لجميع إخوانى وأصدقائى كى يتمتعوا بمشاهدتها

— ٢ —

جلست على حافة بئر عميقة على القمة الأخيرة ناظراً إلى الجبال

التى تسبح فى السحاب والدخان على ضوء الشمس التى آذنت بالزوال ، فرأيتها شاخصة ساكنة كشيخ ورع يحيط به عالم متحرك فانبعثت عاطفتى بتلك المناظر الجميلة سابحة كالطير فى الجو متمتعة بالطبيعة، سكرى بما اشتملت عليه من الجمال ، وإذا غناء حزين من فتاة فى سفح الجبل قد انبعث إلىّ بين هبات الرياح ونفحات الرياحين فأيقظنى ، فأصغيت إليه فإذا هو :

تستقبلنى الشمس حينما أطلع ،
وهى تشيعنى حينما أنزل .
للشمس بعد الغروب موعدٌ للطلوع
لكن الراعى ليس له وقت للرجوع .
ثغاء الغنم ،
صوتٌ حزين فزع !
إنها تشتاق إليك ، ألا تعرف أيها الراعى ؟ !
انقطع الغناء وثغت صغار الغنم بأصوات حزينة وقد اختلطت
بأصوات الأجراس الضئيلة التى لا تكاد تُسمع
إن الأجراس فى رقاب الغنم
معلقة كلها بيديك الكريمتين ؛
لكن الحبل الذى يمسكها يكاد ينقطع وتوشك أن تقع ،
والذى علقها قد ذهب وليس له وقت للرجوع .
ثغاء الغنم ،
صوت حزين فزع !
إنها تشتاق إليك ، ألا تعرف أيها الراعى ؟ !

أخذ الغناء يبتعد شيئاً فشيئاً ويتضاءل صوته فى مسمعى ، ولكن تأثيره فى نفسى كان عجيباً يبعث فى العين الدموع

لست بمعدومة القص ،
أقص به صوف الغنم ؛
ولكن عليه أثر مقصك المحبوب ،
إذا ذهب ذهبتْ روحى وحياتى !
... ...
لست بمعدومة الرباط ،
أربط به جرساً فى رقاب الغنم ؛
ولكنى أنتظر وقت انقطاعه ،
فأذهب إلى جانب المحبوب !

فلما سمعت هذا الغناء انحدرت دموعى من غير أن أشعر ، ثم وقفت على قمة الجبل تحت شجرة الصنوبر ونظرت إلى السفح فإذا قطيع من الغنم لا يزيد على بضع عشرة غنيمة ترعاه فتاة صغيرة وتسير به فى ضوء الشمس الغاربة ذاهبة على مهل نحو المدينة ؛ وكان على رأس الفتاة لفاع أخضر يفيض على يديها ، ويبدو تحته لباس آخر أحمر ؛ وفى رجليها حذاء من النسيج وهى تسير بقطيعها مغنية منشدة مبتعدة عنى شيئاً فشيئاً :

غنمى ، غنمى !
لا تخافى ولا تحزنى !
إنه لا يجترئ حيوان مفترس أن يقترب منك
ما دمت موجودة معك .
فإن جاء ،
قاتلناه حتى نموت فيفعل بنا بعدُ ما يشاء .
غنمى ، غنمى !
ارجعى إلى البيت معى !

وخفت الصوت حتى تلاشى ، وغربت الشمس ، واحتجبت الفتاة عن عينى وراء الجبل ، وكنت غريقاً فى نهر من الدموع . ولبثت واقفاً تحت الشجرة مدة لا أعرف قدرها ، والجبال كأنها نائمة ، وقد تلألأت النجوم فى السماء وبرز الهلال من شرق البحر

— ٣ —

ألا تعرف أنها ابنة السيد مين الشريف ، أيها الضيف الكريم؟

جلست مع مضيفتى الكريمة خارج الردهة نتجاذب الأحاديث وقصصت عليها ما رأيته فى النهار فأخبرتنى باسم تلك الراعية الصغيرة

— إن كانت شريفة من بيت شريف فلماذا ترعى الغنم بنفسها هنالك ؟

يظهر أن سؤالى هذا حرك فى قلب السيدة الكريمة شيئاً كامناً فصمتت برهة وهى تحدق فى الفحم فى وسط الماء ونظرت إليها فإذا عيناها مغرورقتان بالدمع، فندمت على ذلك السؤال الذى ضاقت به مضيفتى ، وذهب بى الفكر مذاهبه . ثم تحولتْ إلىّ مضيفتى الكريمة وقد جفت دموعها وقالت :

— كان فى نفسى ألا أذكر شيئاً من ذلك الماضى الأليم المحزن ، لكننى لا أطيق أن أكتم عنك . غير أن الحديث طويل متشعب فلا أدرى من أين أبتدئه ؟ وأردفتْ :

— لم تولد هذه الفتاة الشريفة هنا ، فى هذه القرية ، لقد كانت تسكن فى الشارع الرئيسى فى العاصمة منذ عشر سنوات، وكان أبوها وزيراً فى الحكومة ، ثم ترك الوزارة وغادر العاصمة

هو وأسرته ليقيموا هنا ؛ وإنما كان ذلك حين عرف أن بعض الخونة فى الحكومة اتفقوا مع دولة أجنبية ذات مطامع ، ولم يسمع الملك شكواه ولم يجبه إلى ما طلب من إعدام هؤلاء الخونة ليصون استقلال البلاد وسيادتها ويوطد سلامتها وحريتها

وكانت زوجته الأولى قد ماتت منذ ست عشرة سنة ، ولم يرزق من زوجته الثانية ولداً ولا بنتاً ، وكانت الفتاة فى الخامسة من عمرها حين ماتت أمها ، وكان أبوها يحبها حباً جماً ، فعهد إلىّ أن أقوم بخدمتها ، وذلك عمل تتوارثه فى أسرتنا من زمان فى خدمة تلك الأسرة ، وكان زوجى شيخو خادماً له أيضاً ، وكان لنا ولد ...

استمرت السيدة فى الحديث وقد شاب صوتها رنة حزن ، والبكاء يغالبها : وكان ابنى اسمه يمن وهو الإسم الذى سماه به سيدنا أبو الفتاة وكان يحبه كثيراً وينادبه دائماً « يابنى يمن » ، وكان اكبر من الفتاة بسنة واحدة فكانت تدعوه أخاها الأكبر ، وكان ابنى يتجاوز فيدعوها أخته الصغيرة أيضاً ، وكان كلاهما يحب الآخر كأنهما أخوان شقيقان

وكانت زوجته الثانية السيدة لى من الأسرة الشريفة أيضاً ، وقد درست فى اليابان وهى صغيرة ، ثم سافرت إلى نيويورك ولندن وباريس وفينا بعد تخرجها فى اليابان فقضت أكثر أيامها فى الخارج . ولما رجعت إلى البلاد وهى فى الثانية والعشرين من عمرها ، طلبت أسرتها إلى السيد مين وقد مرت على وفاة زوجته الأولى ثلاث سنوات أن يتزوجها . وكانت ذات شخصية بارزة فى المعاصمة ، معروفة فى المجتمع باسم الفتاة الحديثة . تصور أيها الضيف الكريم كيف يمكن سيدة متعلمة لطيفة نشيطة حديثة العهد بالزواج مثل هذه السيدة أن تحيا هنا هذه الحياة القروية الخشنة ؟!

انتقل السيد مين إلى هنا ، ونزل فى معبد فى تلك المدينة ، واعتكف فيه لا يهتم بالشؤون السياسية والاجتماعية ، وأمرنى أنا وزوجى أن نسكن هنا فى القرية لضيق المعبد ، واستبقى ابنى يمن معه حيث يقيم ، واشترى له قطيعاً من الغنم يرعاه ، وكان ابنى فى الثانية عشرة من عمره يرعى الغنم بين الجبال فى الأيام التى لا تمطر فيها السماء ، وفى بعض الأحيان كانت تصحبه الفتاة ، وكثيراً ما كانا يضلان ، فنخرج للبحث عنهما حتى نجدهما فى سلام وسرور.

أذكر أنهما مرة لم يرجعا إلى المعبد حتى منتصف الليل ، وظن السيد مين أنهما فى منزلنا ، فبعث إلينا يستفسر عنهما ، فجزعنا وخفنا أن يكون قد أصابهما شر وأسرعنا نبحث عنهما هنا وهناك ، فلما وصلنا إلى جبل كنج كنج البحرى رأينا القطيع على بعد نائماً على الشاطئ ، وقد اتكأ ولدى على صخرة كبيرة ، ونامت الفتاة متكئة على كتفه وقد استغرقا فى نوم عميق ، وكانت الليلة مقمرة ، كهذه الليلة ، والقمر ينشر ضوءه على الأرض والبحر تتجاوب أمواجه ، فكانا فى مهد الطبيعة الكبير . إننى لن أنسى ما حييت تلك المناظر الجميلة التى رأيتها ليلتئذ

وكان ابنى يمن يعالج بعض التمرينات الرياضية فى المعبد مع الرهبان فى الأيام الممطرة ، فلا يخرج ليرعى الغنم ، وكان يقرأ ويكتب مع الفتاة عند أبيها كل ليلة . وهكذا مرت أربع سنوات ولم يحدث شىء . وبلغ ابنى ست عشرة سنة من العمر ، وبلغت الفتاة خمس عشرة ، وكان السيد مين يقول دائماً : سأذهب بهما إلى المدينة لتزداد معلوماتهما ... أواه ! إن إرادة الله فوق إرادة الإنسان ، فقد حدث فى تلك السنة ... ...

وأمسكت السيدة وأخذت تبكى بكاء مراً شعرت معه برجفة وتوقعت أن نكبة شديدة قد أصابت هذه الأسرة ، وكان القمر فى تلك اللحظة محجوباً بسحاب كثيف فزادنا ذلك شعوراً بالحزن والكآبة ولم أجرؤ على السؤال عما حدث ، وانتظرت حتى عادت السيدة إلى نفسها وقالت والدموع فى عينيها :

« فقد قتله أبوه .. قتله أبوه فى تلك السنة ! ... »

ثم عادت السيدة إلى البكاء ، فلم يلبث أن وقع حزنها فى قلبى وملكنى ألم شديد ، وكنت أود أن أجد كلاماً أعزيها به فلم يطاوعنى لسانى فوقفت وقدمت إليها فنجاناً من الشاى فأخذته وجرعت منه جرعات ثم قالت :

« القصة طويلة جداً فلآت بكتاب ابنى الأخير تقرؤه ، ثم أخبرك بالخاتمة »

— ٤ —

كان قد مضى من الليل نصفه والجو بارد ، فدخلنا الغرفة وجلسنا على الأرض الخشبية كما هى عادة الكوريين ، وجاءتنى السيدة بكتاب ابنها فأخذت أقرؤه تحت ضوء المصباح الضعيف :

أمى المحبوبة :

لقد عثرت برسالة كانت بجانب الحظيرة عند ما رجعت من المرعى . يظهر أن هذه الرسالة كانت سقطت من أبى ، وأخذت أقرؤها لأنها كانت مفتوحة ، أواه ! أمى ! ليتنى لم أقرأها فقد جزعت عند ما قرأتها وطار لبى !

لقد عزمت على أن أنقذ سيدنا وأختى وأبى ، لأنى لا أريد

أن يرتكب أبى تلك الجريمة الشائنة فيصير مذنباً عظيما ، وأظنه الآن فى المعبد فإنى لم أجده بعد البحث الطويل . أمى ! إنى أعتقد أن هذا السر إذا شاع فإنه سيكون له شأن . إنه أمر لا يهم أبى وحده لذلك سأمضى لأبحث عنه فى الليل وأراقبه، وسأحاول أن أمنعه عن ارتكاب ذلك الجرم العظيم وأقنعه أن ذلك عمل سيئ

أمى المحبوبة :

إن خذلنى الحظ وقُدِّر لى أن أموت فلا تحزنى ، فإنه خير للرجل أن يموت حراً من أن يبيع حريته وبلاده للأجانب ... ولقد ضاق الوقت فلا يسعنى أن أكتب أكثر من هذا . فإذا قرأت الرسالة السرية التى عثرت عليها فأحرقيها قبل أن يراها أحد وإذا حمَّ القضاء فَّ فأرجو أن تقدمى نسختين من يومياتى المحفوظة فى الدرج إلى أختى المحبوبة !

وادك « بين »

الرسالة السرية

شيخو ...

تعال إلى المعبد هذه الليلة وسأساعدك على دخول الحجرة، فإذا أمكننا أن نبطش بهم جميعاً كان خيراً . خذ هذه الورقة التى فيها شعره الثائر المثير ، واذهب بها إلى المعسكر ، واعترف بما فعلت ، فسيكون فى ذلك نجاتك ورقيك ! احذر ولا تنس !

(فى ١٦ يونية) السيدة « لى »

الشمس

من نظم السير « مين »

ما أحمى الشمس النـارية ! قد أحرقت زرع أراضينا الخصبة
جف التراب ومات الزرع فافتخرت الشمس النـارية
ليتنى أجـــد سهم بى[1]
فأرميك به حتى تسقطى فى أعماق البحار
وليتنى أجـــد سيف بان[2]
فأقطعك به حتى تموتى وراء الجبال
لـكن السهم والسيف ليسا معى
وإنما أذرف الدم من عينى دموعاً على الجبال

(١) من الأساطير الصينية القديمة أن الشمس فى السماء كانت عشراً فأحرقت الزارع والناس يشكون من حرارتها ، فرمى بى بسهامه وأصاب تسعاً منها وأبقى واحدة حتى يعيش بحرارتها الانسان ، فكان بى مشهوراً برمى السهام

(٢) من الأساطير أيضاً أن بان أحد الصينيين كان مشهوراً بقوته وشجاعته وسيفه القاطع. لا يقدر أحد من معاصريه أن يصارعه أو يضاربه

ما أطول النهار ! فمتى يحين الليل ؟

ومتى الهـــدوء والنهـــاية ؟

انتظرتنى السيدة الكريمة حتى أتممت قراءتها كتاباً كتاباً ثم قالت لى بصوت هادئ حزين :

— لعلك قد عرفت القصة بوضوح أيها الضيف الكريم ؛ فقد مات ابنى الوحيد فى تلك الليلة المشئومة ، ليلة ١٦ يونية . وقد جاءنا فى ظهر اليوم التالى راهب صغير وقدم لزوجى رسالة ، فخرج من فوره ، وكنت أظن سيدنا استدعاه لأمر مهم فإذا به يعود بعد منتصف الليل متعباً سكران ، ثم لم يلبث أن جاء طارق يطرق بابنا ، فلما فتحته وجدت اثنين من الرهبان فصاحا قائلين :

— وا حزنا أيتها السيدة الكريمة ! لقد قتل ابنك الكريم !

فلما سمعت كلمتهما أخذتنى رعدة شديدة . وخرج زوجى فجأة من الغرفة كأنه قد سمع ما أخبرانى به ، وصاح قائلاً :

— أواه ! لقد غلطت فى القتل ! لقد غلطت فى القتل !

ثم خرج من الباب مسرعاً !

وذهبت إلى المعبد عَدْواً ، فلما دخلت الحجرة التى ينام فيها ولدى ، وجدت على مكتبه رسالة مكتوباً فيها : « إلى أمى المحبوبة من ولدها بين » . فأخذتها ووضعتها فى جيبى ، وأسرعت إلى المكان الذى يزدحم فيه الناس حول القتيل ، فرأيت ابنى بين مخضباً وجهه بالدماء وقد سكن قلبه وبرد جسمه ، فسقطت على الأرض مغشياً علىَّ

ولما أفقت من الإغماء ووجدت السماء صافية والشمس ساطعة ، ظننت أنى كنت فى حلم مخيف ، وحدقت فيما حولى فوجدتنى نائمة فى حجرة الفتاة الصغيرة ، ووجدتها ساكتة بجانبى ؛ ولما رأتنى قد أفقت أحنت جسمها وأخذت تعزينى ، فازداد بذلك حزنى وبكائى ، وبكت الفتاة معى

وبعد قليل دخل السيد مين وزوجته السيدة لى وقال لى السيد :

« يجب أن ندفن ولدنا بين ؛ فلماذا لم يظهر أبوه إلى الآن ؟ »

لما سمعت ذلك عرفت أن زوجى لم يجىء إلى المعبد قط ، ثم تذكرت الكتاب الذى تركه ابنى على مكتبه فطلبت من الفتاة أن تخرجه من جيبى وتقدمه إلى والدها ليقرأه ؛ فما كاد يتناوله حتى سقط من يده كتاب آخر ، هو الكتاب السرى الذى كتبته السيدة لى إلى زوجى ، فلما رأته السيدة لى خرجت مسرعة وأخذ السيد يقرأ كتاب ابنى ، وخرجت الفتاة الصغيرة فقدرت أنها ذهبت لتأخذ اليوميات من درج المكتب . وقرأ السيد